التعليم الضمني لقواعد اللغة العربية من طريق القرآن الكريم لصغار المتعلمين

Implicit Instruction of Arabic Grammar through the Holy Quran for Young Learners

د. فتحي بحة
جامعة الوادي (الجزائر)
fathielbahawi79@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/04/17 **تاريخ القبول: 2021/05/11**

ملخص:

تحدث كثير من باحثي اللسانيات وتعليمية اللغة عن ضرورة إيجاد طرائق جديدة لتيسير تعليم اللغات، وجعل العملية التعليمية أكثر إثارة ومتعة وفائدة، ومنه فقد اقترحت استراتيجيات وآليات كثر بغية الوصول لتلك الغايات، ولما كانت الحاجة مسيسة إلى مثل هاته الاستراتيجيات الفاعلة للارتقاء فعليا بعمليات التعليم والتحسين من كفاءتها حينا فحينا، كان لزاما علينا البحث عن آليات مناسبة تتلاءم مع لغتنا العربية كيما تكون أقرب مدخلا وأيسر دربا وأحكم صبغة في أذهان ناشئتها وأكثر جريانا على ألسنة متكلميها الصغار منهم والكبار.

وعليه فقد جاء هذا البحث ليتناول موضوع التعليم الضمني لقواعد اللغة العربية من طريق القرآن الكريم لصغار المتعلمين، لنختبر كفاءة هذا السبيل في تحقيق غايات التعلم بجعل العملية التعليمية ككل أكثر متعة وأعلى كفاءة في الوصول إلى نتائج التعليم، ومنه نطرح الإشكال الآتي: إلى أي مدى يمكن لحفظ الكريم والاستماع الدائم والجيد له أن يسهم في التعليم الضمني لقواعد اللغة العربية لصغار المتعلمين من الناشئة؟

الكلمات المفتاحية: اللسانيات، التعليمية، المعرفة الضمنية، المعرفة المباشرة، الكفاية اللغوية.

Abstract:

This intervention deals with the subject of implicit teaching of the rules of the Arabic language through the Holy Quran for young learners, to test the efficiency of this path in achieving the goals of learning by making the educational process as a whole more enjoyable and more efficient in reaching educational outcomes.Thus, we raise the following problem: to what extent can memorizing the Holy Quran and permanently listening to it contribute to the implicit leraning of the Arabic grammar by young learners?

Keywords*:* linguistic, *Didactic*, Tacit knowledge, direct knowledge, linguistic competence.

مقدمة:

يشكو جلّ معلمي اللغة من صعوبات جمة ترافق تدريسهم للمواد والمعارف اللغوية خاصة، ثم إنّ الواحد من الناشئة قد يَلْبَثُ في مسالك تعليم اللغة السنوات الطوال ولا يكاد يُبِينُ، وما ذلك إلا لأن تعليمهم ذاك لم يكن مؤسسا، ولا مرتبطا بغايات واضحة محددة، من أجل ذلك جرت الأبحاث في هذا الشأن لإيجاد سبل وطرائق متجددة للتعليم ولتذليل تلك الصعوبات بالوصول إلى غايات التعليم بكفاءة تامة، فاقترح التعليم الوظيفي للغة، كما اقترح التعليم التواصلي للغة ... وغير ذلك مما قد يوصل للغايات المنشودة.

ومنه فقد جاء هذا البحث ليقترح طريقة قديمة متجددة تعتمد على الحفظ الجيد للنصوص التليدة من أجل ترسيخ العادات اللغوية السليمة في أذهان الناشئة من المتعلمين وقد وسمنا المنجز بـ"التعليم الضمني لقواعد اللغة العربية من طريق القرآن الكريم لصغار المتعلمين"، وغايتنا في كلّ ذلك الكشف عن مدى تأثير آليتي الاستماع والحفظ في تكوين ملكات لغوية سليمة، وتمكين المتعلمين الصغار من بناء كفاءات لغوية ضمنية من خلال الممارسة الفعلية للغة في نطاق لون من الانغماس اللغوي المباشر، ومنه نطرح الإشكال الآتي: إلى أي مدى يمكن لحفظ الكريم والاستماع الدائم والجيد له أن يسهم في التعليم الضمني لقواعد اللغة العربية لصغار المتعلمين من الناشئة؟

أولا– تعريف القواعد النحوية:

القواعد وسيلة لحفظ الكلام وصحة النطق والكتابة، وهي ليست غاية مقصودة لذاتها بل هي وسيلة من الوسائل التي تعين المتعلمين على التحدث والكتابة بلغة صحيحة فقواعد اللغة العربية هي أداة لتقويم ألسنة الطلبة والمتعلمين وعصمتهم من الوقوع في اللحن والخطأ، فتعينهم بذلك على دقة التعبير وسلامة الأداء ليستخدموا اللغة استخداما صحيحا[1].

ثانيا– مفهوم المعرفة النحوية الضمنية للقواعد اللغوية:

لما نظر اللسانياتيون في موضوع الكفاية الذي يستعمل مقابلا للمصطلح الإنجليزي (COMPETENCE) الذي يشير إلى مفهومين اثنين هما:

1- **القدرة:** وهي التي تمكن الفرد من إنتاج عدد لا متناهي من الجمل.

2- **الملكة اللسانية:**أو ما يسمى بالسليقة اللغوية عند بعض الباحثين.

ومن هنا بدأ البحث في مفهوم الكفاية اللغوية فظهرت إذاك مجموعة من التوجهات النظرية والمنهجية التي استقرّت اليوم في وضعها النظري.

وكان من أبرز ما توصلت إليه الأبحاث في هذا الشأن دراسة أهم الآليات التي توظفها كفاية المتكلمين لإنتاج العلامات اللسانية في شكل أداء لغوي قادر على إنجاز عملية التواصل وتحقيقها على أكمل وجه وأتمه مع ممارسة الرقابة القاعدية عليها، وهو ما يسمونه بالمعرفة اللسانية، وعليه وضعت الفرضيات العلمية حول مكوّن غير قابل للملاحظة وهو الكفاية اللغوية، والتي عدّت في نظر اللسانيين مفهوما داخليا.

ونتيجة لمجهودات الدارسين اللسانيين لتحديد ماهية الكفاية أورد هؤلاء الباحثون مجموعة من الأفكار من ذلك ثنائية: (الكفاءة والأداء)، وهي جملة من الثنائيات ارتبطت كما يذكر الباحث "محمد العبد" بنظريات الفكر اللغوي ومناهجه، وبناء على ما سبق فقد ركزت النظرية التوليدية التحليلية ومن وراءها العالم الأمريكي "نعوم تشومسكي"[2] (NEOM CHOMSKY) على تحليل مقدرة متكلم اللغة على إنتاج جمل وتعبيرات لم يسمعها من قبل وفهمها، وميز بين الكفاية اللغوية والأداء اللغوي.

فالكفاية اللغوية تحدد بأنها المعرفة الضمنية بقواعد اللغة التي هي قائمة في ذهن متكلم اللغة وهي بذلك حقيقة كامنة وراء الأداء الكلامي الذي ينحرف بعض الشيء عنها، وهي التي توجهه في مختلف ظروف التكلم في حين يعرف الأداء الكلامي باستعمال الفرد لهذه المعرفة في عملية التكلم، فهو انعكاس –كما يذكر ميشال زكريا – للكفاية فيه بعض الانحرافات عن قوانين اللغة وبإمكانه أن يكشفها في أداءه بناء على معرفته الضمنية بقواعد اللغة، أي بالعودة إلى الكفاية اللغوية[3].

وذهب "ليفاندومسكي" (LIVANDOMSKY) إلى القول بأنّ الكفاية معرفة ضمنية باللغة، والأداء استعمال اللغة في مواقف ملموسة، والكفاية معرفة مكتسبة، والأداء فعل كلامي متحقق وهو يعني أنّ الأداء طريق للوصول إلى الكفاية، فلا تدرك الكفاية إلا بأفعال الأداء اللغوي، وعليه عدّت الكفاية بناء افتراضيا، والأداء نتاجا لغويا واقعيا.

وإذا كانت الكفاية اللغوية التي نادى بها تشومسكي وأتباعه مقصورة كما ذكر بعضهم على الكفاية النحوية، فإن هذا الأمر دفع باحثين آخرين كـ: "هايمز" (HAMYZ) و"هاليدي" (HALIDY) إلى اقتراح ما أسمياه بالكفاية الاتصالية التي تشمل المعرفة بأصول الكلام وأساليبه، ومراعاة المخاطبين مع القدرة على تنويع الكلام حسب مقتضى الحال إضافة إلى اللغة ومفرداتها[4].

إذن فمفهوم المعرفة النحوية الضمنية لا يخرج عن كونها معرفة المتكلم الضمنية اللاشعورية بقواعد اللغة وهي قائمة في ذهنه، وهو يستخدمها بشكل آلي وتلقائي في السلوك اللغوي، بمعنى أنّ لكل متكلّم لغة معرفة ضمنية كامنة ضمن كفايته اللغوية يلجأ إليها دون تخطيط كلّما احتاج إلى الكلام، وهي تلك القواعد الكامنة ضمن مقدرة متكلم اللغة وهي التي تمكّنه من إنتاج الجمل التي يفهمها، وهي تمثل ملكة لا شعورية تمكن من أداء اللغة بشكل موافق لمعتاد الناس في استعمال اللغة[5].

ثالثا– مفهوم المعرفة المباشرة للقواعد النحوية:

أمّا حدها فهي تلك الحقائق التي يعرفها الدارس عن اللغة وقدرته على التعبير عنها بشكل ما، ففي استعمال المتكلم للمعرفة اللغوية المباشرة فهو يعود إلى مخزونه اللغوي بطريقة ذهنية وواعية ويختار منها ما يناسب مقام الكلام كلّما استعمل اللغة في مختلف ظروف التكلم، ومن هنا نلحظ أنّ هذه المعرفة استعمال آني للغة، أي تجسيد للمعرفة الذهنية من خلال الأداء اللغوي الكلامي الذي هو تجسيد للكفاية اللغوية، وتغدو بذلك المعرفة المباشرة هي ذلك الجانب الملحوظ.

والظاهر أنّ كلا المعرفتين (المباشرة والضمنية) تعتمدان على بعضهما فلا تظهر المعرفة الضمنية إلا بعد تجسيدها من خلال المعرفة المباشرة، وتحقق الكلام عند الرجوع إلى المعرفة الضمنية التي تكمن من خلالها قواعد اللغة كلها، وعليه فالمعرفة الضمنية هي الموجّه والمحرك لآلية الكلام، أما المعرفة المباشرة فهي الانعكاس المباشر للكفاية اللغوية[6].

ونمثل لذلك بما أعطاه "ميشال زكريا" في كتابه (مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة) من أمثلة حول المعرفة الضمنية والمعرفة المباشرة في تعليم اللغة الثانية يقول:"إننا حين نسعى إلى تعلم لغة ثانية، اللغة الفرنسية مثلا إنما نحاول أن نحرز قدر الإمكان كفاية لغوية في هذه اللغة تكون مقاربة للكفاية اللغوية عند المواطن الفرنسي (...) وذلك أنّ للفرنسي معرفة ضمنية لا شعورية بقواعد لغته، بينما تكون معرفة الأجنبي بقواعد اللغة الفرنسية معرفة مباشرة، فالأجنبي يلجأ بصورة واعية إلى قواعد اللغة الفرنسية كلما أراد التعبير بهذه اللغة"[7].

فالمعرفة الضمنية هي المعرفة اللاواعية والمختزنة في دماغ الإنسان والتي يلجأ إليها تلقائيا وآليا كلما احتاج إلى استعمال اللغة في موقف من مواقف التواصلي اليومي، بينما تعدّ المعرفة المباشرة بقوانين لغة من اللغات معرفة واعية متعلمة تنتج عن تفكير وتدبر، بيد أنّ المعرفة المباشرة تغدو معرفة ضمنية مع مرور الوقت ودوام التكرار، فتغدو ملكة راسخة ويصبح متعلم اللغة كمتكلم اللغة الطبيعي.

رابعا– مراحل تدريس القواعد النحوية في المرحلة الابتدائية:

الحلقة الأولى: وتشمل الصفين الأول والثاني، وفي هذه الحلقة لا يعلم الطفل القواعد مطلقا ولا يأخذ بنوع معين من التدريبات حول أسلوب خاص أو تأليف جمل بشكل محدد، لأنّ الطفل في هذه المرحلة محدود الخبرات، وحاجته مسيسة إلى توسيع خبرته وتنمية محصوله اللغوي ليستطيع التعبير عن حاجاته دون توقف، فمهمة المدرس في هذه الحلقة محصورة في تمكين الطفل من الكلام باللغة التي يستطيعها، ولغة هذه المرحلة هي العامية لذلك فإنّ صحة الأسلوب تتأتى بالتدرج وكثرة السماع والممارسة[8].

الحلقة الثانية: وتشمل الصفين الثالث والرابع، وفي هذه الحلقة يدرب التلميذ على صحة الأداء وقوة التعبير بطريقتين:

أ- استمرار التدريب المباشر على التعبير، كما هو معمول به في الحلقة الأولى ولكن بصورة أرقى.

ب- تدريبه على وحدات نحوية معينة تشيع في لغته ويستعملها استعمالا خاطئا، وذلك كتدريبه على الأسئلة والأجوبة، وعلى بعض الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة في ذلك يمكن أن نستثمر معرفته المسبقة في تلقينه بعض القواعد وتهذيب وتصحيح البعض الآخر، ومن ذلك أن نصحح له بعض الكلمات من نحو كلمة: (إحنا) إلى (نحن)، أو كلمة: (كيفاش) إلى (كيف)، أو: (اللي) إلى (الذي) ... وهلم جرا من الكلمات والقواعد النحوية الأخرى انطلاقا من رصيده اللغوي الأول الذي يمكن أن يتخذ مطية في هذا المضمار لتحقيق نتائج مرضية، وفي هذه المرحة يجب تيسير التدريب وتحبيبه للمتعلمين باستعمال البطاقات والألعاب اللغوية والمحاورات والتمثيليات واستخدام القصص ما أمكن[9].

الحلقة الثالثة: وتمثل الصف الخامس، والتلميذ في هذه الحلقة يمكن أن نطمئن إلى نضج فكره وقدرته على فهم القواعد بالطريقة القاصدة التي تعتمد على الأمثلة والمناقشة والاستنباط والتطبيق، ولا يمانع من تخصيص إحدى الحصص لتدريس القواعد والتدريب عليها في هذه الحلقة مع مراعاة التيسير على المتعلمين بعدم الإكثار من القواعد المختلفة في الحصة الواحدة[10].

خامسا– أهداف تدريس القواعد النحوية للصفوف الأولى من التعليم الابتدائي:

أهداف تدريس القواعد النحوية للصفوف الأولى من التعليم الابتدائي كثيرة ومتعددة يمكن إجمالها في الآتي[11]:

أ– تزويد المتعلم بأساس محسن لتفكيره بما يجعل استجابته اللفظية للمواقف ذات مغزى ودلالة.

ب– تزويد المتعلم بالخبرة الحقيقية التي تخلق فيه النشاط الذاتي.

ج– تزويد التلميذ باستمرارية التفكير.

د– تنمية ملكة التلميذ بحيث تخلق له قلبية أكثر في التعلم وفهم النصوص.

هـ– تمكنه من معرفة النصوص واختيار الأفكار وتنظيمها.

و– التفريق بين أنماط الجمل الاسمية والفعلية.

ز– التعرف على الضمائر والصيغ والتفريق بينها.

ح– قراءة النصوص قراءة مناسبة مسترسلة ومعبرة مع مراعاة علامات الوقف واحترام الموقف على السواكن.

ط– فهم النصوص والحكايات وكل ما يقرأ والإجابة عن الأسئلة التي تطرح عليه.

سادسا– منطلقات تدريس النحو في المرحلة الابتدائية:

الحق إن تدريس القواعد اللغوية في المراحل التعليمية الأولى ليس حكرا على حصة بعينها، وذلك أنّ المتعلم يتلقى لغة في كلّ حصة تعليمية وتربوية أو من خلال المحاورات المختلفة، ولذا وجب على المدرس أن يعمل على استغلال كلّ الحصص لتلقين المتعلم جملة من القواعد بطريقة غير مباشرة من خلال الممارسة الفعلية للغة في مختلف مناشط التعلم وعليه يذكر أغلب الباحثين المحدثين في مجال تعليم اللغات ضرورة الاستئناس بكلّ مناشط اللغة في تمكين المتعلمين من التعرف على مختلف قواعد اللغة بممارستها ممارسة فعلية وهاته المناشط هي[12]:

1. **التعبير الشفوي**: وهو المنطلق الأول في اكتساب المتعلم جملة من القواعد اللغوية من خلال الممارسة الفعلية للغة فمن خلاله يمكن للتلميذ أن:
   - يتزود التلميذ بحصيلة لغوية.
   - يتعود على التعبير الصحيح المستند على عرض الأفكار وتنظيمها.
2. **القراءة**: وهي المدخل الثاني لتعليم القواعد اللغوية وهي تهدف إلى:
   - التدريب على القراءة الصحيحة والنطق السليم للكلمات.
   - اكتشاف الصيغ والتراكيب لأن تعلم القراءة وإتقانها ينعكس على النحو.
3. **الأناشيد والمحفوظات**: وهي وسيلة لتربية الأذواق وتعزيز الرصيد اللغوي وتزويدهم بزاد لغوي من الألفاظ والتعبيرات التي تعينهم على توظيف الكلمات توظيفا مثمرا، ومن أهداف تدريس الأناشيد:
   - التمثيل الجيد للمعنى.
   - التعرف على الصيغ والتفريق بين الضمائر المختلفة (المتصلة والمنفصلة) وأسماء الإشارة وأسماء الألفاظ الدالة على المكان (تحت، فوق، على...) وأدوات الربط وحروف الجر والنصب والتذكير والتأنيث، والتعرف على أنماط الجمل والتراكيب والتفريق بينها... وهلم جرا.
4. **الكتابة** :وهي تشمل عددا من المناشط الآتية:
   - الخط: ومن خلاله يمكن للمتعلم أن:
     أ- تعلم كتابة الأحرف كتابة جميلة وواضحة.
     ب- كتابة الجمل مع حسن احترام التناسق بين كلماتها.
     ج- كتابة فقرات قصيرة.
   - الإملاء: ومن خلاله يمكن للتلميذ أن يتعرف على:
     أ- التاء المربوطة في الاسم المفرد والمؤنث.
     ب- الأصوات المنطوقة غير المكتوبة.

ج- التاء المفتوحة في الأفعال.
د- رسم الهمزة في أواخر الكلمات.

- التعبير التحريري: ومن خلاله يمكن للتلميذ:

أ- تحرير بطاقات التهاني والدعوات.
ب- تحرير الرسائل.
ج- تحرير حكاية موجزة.
د- تحرير حوار قصير.

سابعا– اكتساب قواعد اللغة العربية بطريقة ضمنية بحفظ القرآن الكريم[13].

كان اكتساب اللغة وقواعدها عند العرب القدامى يتم بطريقة طبيعية تلقائية، من خلال وجودهم في بيئة لغوية مثالية، فهم دائمو السماع للأنماط اللغوية السليمة، بل إن كثيرا منهم كان يحرص على تعليم أبنائه ما صفا وكَمُلَ من اللغة، وذلك بأن يعمدوا إلى إرسال أبنائهم إلى البوادي لتتم تنشئتهم على خير ما يرومون من فصاحة القول وحسن المنطق والخلق، ولنا في رسول الله صلّى الله عليه وسلم أحسن مثل، وقد دأبوا على ذلك ردحا من الزمن فكان الناشئ منهم يكتسب لغته من خلال مخالطة الآخرين والاستماع إليهم بشكل دائم في نوع من الانغماس الطبيعي في المجتمع المثالي حتى يكتب تلك الملكة اللغوية والتي ظنها البعض جِبِلَّةً فيهم، بيد أنّ أهل العلم وفي مقدمتهم "ابن خلدون" أكدوا أنها ملكة صناعية تكتسب كغيرها من الملكات والصنائع، وفي هذا يقول: "اعلم أنّ اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة (...) فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولا يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كلّ لحظة ومن كلّ متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم"[14].

هكذا تكتسب اللغة إذن من طريق السماع الذي عده "ابن خلدون" (أبا الملكات)، ومن طريق الكلام والمخالطة والذي يسميه علماء اللسانيات بـ(الحمام اللغوي)، وقد درجت عليه الأمم في إكساب لغاتها للناشئة من الأجيال المتلاحقة.

بيد أنّه وبعد أن فسدت تلك الملكة للعرب بمرور الأجيال، وبعد مخالطتهم الأعاجم مما تسبب في ميلاد ملكة جديدة وقد كانت ناقصة عن الأولى، مما دعا عالما كابن خلدون إلى الدعوة إلى اتخاذ مسالك جديد، وطرائق مستحدثة في اكتساب اللسان العربي السليم وفي هذا يقول: "اعلم أن ملكة اللسان المُضَرِي، لهذا العهد قد ذهبت وفسدت، ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى (...)، إلا أنّ اللغات لما كانت ملكات كما مر، كان تعلمها ممكنا شأن سائر الملكات، ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم"[15].

هذا منهج جديد وسبيل مستحدث اقترحه ابن خلدون لمن يروم تعلم اللغة العربية واكتساب سليقة لغوية جيدة ومعرفة كافية بها، وكفاءة عالية في أداءها وأداء قواعدها بطريقة تضارع معهود العرب في استعمالهم للغة، ذلك أن كثرة المحفوظ من كلام العرب ناهيك عن ممارسته سماعا ولفظا سيمكن الممارس لها من اكتساب معرفة ضمنية بقواعدها ترتسم تلقائيا في ذهنه كالمنوال، ليقيس عليها فيما سيأتي من زمن جملا وعبارات مستحدثة لربما لم يسمع بها من قبل، وفي هذا يقول ابن خلدون: "ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزاد بكثرتهما رسوخا وقوة"[16].

ثم إنه على مقدار جودة المسموع والمحفوظ من الكلام وكثرته، وكثرة استعماله تجود الملكة في الفهم ثم في القول والأداء، وفيه يقول ابن خلدون:"وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظما ونثرا"[17].

هذا المنهج المبتكر في كسب النظام اللغوي العربي بطريقة تلقائية وضمنية هو ما نقترحه اليوم لأبناء جيلنا الحالي والذين يرومون تعلم اللغة العربية واكتساب سليقة لغوية

وكفاية تامة في أدائها، انطلاقا من القواعد الصحيحة لها، منهج يعتمد على كثرة المحفوظ من كلام الله تعالى على جودته، مع دوام الاستماع إلى النصوص المنجزة منه والممثلة في الأشرطة المسموعة والمرئية لساعات طوال حتى ترتسم القواعد اللغوية للغة العربية في أذهان الناشئة كالمنوال، الذي سيقيسون عليه لاحقا أنماطهم اللغوية الجديدة، وسينشؤون على غراره عباراتهم وجملهم المبتكرة.

ثامنا– أهمية الاستماع والحفظ في تكوين العادات اللغوية السليمة.

من المفيد ونحن نتحدث في هذا السياق البحثي عن اكتساب قواعد اللغة العربية وتعلمها بطريقة ضمنية من طريق القرآن الكريم أن نشير إلى أهم الآليات التي يمكن أن تسهم بشكل مباشر في تزكية الفكرة وتعزيزها، وفي كلّ هذا سنركز على آلية الاستماع والحفظ في تكوين الكفاءات القواعدية السليمة والمنتجة.

1– مهارة الاستماع: خلق الله الإنسان وجعله في أحسن صورة، وجعل له السمع والبصر والفؤاد وفضله على جميع خلقه، بما أودع فيه من الطاقات والنعم، وأَجَلُّ هاته النعم نعمة (السمع): وهو القدرة على التقاط الأصوات واستيعابها والتفاعل معها، وما قد خفي على كثير من العالمين هو أن الاستماع مهارة تربى وتطور لكونها المدخل الأول للمعرفة عند الإنسان، وبه يحقق الإنسان الفهم، فالدماغ البشري لا شيء فيه من المعرفة إلا ما يأتيه من طريق الحواس، ولما كانت حاسة السمع بهاته الأهمية كان لزاما أن يُعْتَنَى بها أيما عناية لتؤدي دورها المنوط بها على أحسن وجه وأتمه.

وقد كنا سلفا قد ذكرنا أهمية هاته المهارة في اكتساب اللغة حتى إن بعض العلماء سمى السمع (أبا الملكات)، وعليه فالطفل الذي ينشأ في بيئة يكثر فيها استعمال أنماط لغوية ما، فإنه سرعان ما سيقتفي أثرها لا محالة في وقت لاحق، وفي هذا يقول "ابن فارس": "تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهما على مر الأوقات، وتؤخذ تلقنا من ملقن، وتؤخذ سماعا من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة"[18] أما "ابن خلدون" فيؤكد أهمية التلقين في تكوين العادات اللغوية السليمة يقول: "... إلا أنّ

حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا"[19] وهكذا يكون الاستماع المباشر والتلقين سببا رئيسا في حدوث ملكة اللغة وما القواعد إلا جزء لا يتجزأ من اللغة، إذ اللغة كلّ متكامل في مستوياتها ولا تنفصم عراها: (صوتها وصرفها، ونحوها وتركيبها، ومفرداتها ومعجمها، ودلالاتها)، فالصبي الذي يكتسب اللغة تلقينا من طريق الاستماع إلى آيات الله تتلى عليه في كل حين، سيكتسب في الوقت نفسه كفاية قواعدية ضمنية في توليد اللغة واستعمالها بطريقة إبداعية متفردة كما لم يسمعها من قبل، وهاهنا تكمن أهمية الاستماع في حدوث عمليات التعلم المبكر في ظل غياب "قدرات القراءة والكتابة في المراحل التعليمية الأولى عند الأطفال"[20]، فيبني الطفل رصيدا معجميا ولغويا كافيا يسعفه في التواصل مع من حوله بطريقة إبداعية.

2– مهارة الحفظ: من المفيد أن يدرك القارئ أن مهارة الاستماع لا يمكن أن تكون مثمرة ومفيدة إلا إذا اقترنت بمهارة الحفظ، وأن مهارة الحفظ نفسها لا يمكن أن تتأتى إلا من طريق مهارة (التكرار)، ولابن خلدون في هذا قول ذكرناه سلفا: "ولا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كلّ لحظة ومن كلّ متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم"[21]، ويواصل "ابن خلدون" قوله: "إنّ حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم"[22]، ذلك أنّ كثرة المحفوظ على جودته وكثرة تكراره ستجعل الصبي المتعلم يُكَوِّنُ عادات لغوية جيدة مؤسسة على قواعد متداولة في الخطاب المسموع والمنجز، كلّ هذا سيجعله يقتفي آثار مسموعه، بل قد يتفوق عليه في طريقة إبداعه، ثم إنّ المحفوظ سيساعد المتعلم على تقويم لسانه فينطق بالأصوات نطقا صحيحا، ويقف بنفسه على التباينات بين الأصوات المتقاربة المخرج، كما يتعود على المتعلم على القواعد اللغوية النحوية منها والصرفية انطلاقا من النماذج المحفوظة والتي سجلتها ذاكرته، بحيث يكتسب المتعلم استنباط القواعد من النماذج المحفوظة في ذاكرته، ويتمكن من إدراك العلاقات بين الجمل البسيطة والجمل المركبة، وتتضح لديه وظيفة كلّ منهما، الأمر الذي يمكنه من النسج على منوالها نماذج جديدة مبتكرة[23].

تاسعا– فكرة "ابن خلدون" منهجا وطريقة للتعليم.

سنجتهد في هذا الجزء بالإفادة من بعض المراجع لتحويل فكرة ابن خلدون إلى منهج متكامل وطريقة للتعليم، ذلك أنه كما يقول الدكتور "علي أحمد مدكور" فإنّ تربية الملكة اللسانية وفقا لنظرية ابن خلدون يمكن أن تتم من خلال تطبيق أسلوب محدد في تخطيط المنهج، وتنفيذه، وتقويمه ومتابعته على النحو الآتي:

1– التخطيط: وذلك باختيار النصوص الأصيلة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والأدب شعره ونثره، على أن تكون النصوص مناسبة لسن المتعلمين في أسلوبها وموضوعاتها وفقا لكلّ مرحلة تعليمية، كما يَنُصُّ على برمجة الموضوعات النحوية التي تَرِدُ في هاته النصوص على نحو: (الفعل والفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر...وهلم جرا) على أساس توزيعها على المراحل الدراسية المختلفة، مع تدرجها من حيث السهولة والصعوبة مع مراعاة التداول والاستعمال فيها مع كلّ مرحلة.

2– التنفيذ: يتمّ تناول النصوص المخصصة لكلّ مرحلة بالدراسة، والفهم والتفسير، والنقد والتقويم، ثم الحفظ انطلاقا من جملة من الإجراءات: (الاستماع والمناقشة والفهم، ثم التدريب على القراءة الصامتة ثم القراءة الجهرية، ومن ثم الوقوف على القضايا والقوانين النحوية المقررة لهذا الصنف من المتعلمين، ثم الوقوف على المعايير والقيم ومناحي الجمال في النص، ومن ثم يحفظ النص حفظا جيدا، بحيث ينطبع في النفس، وليُقْتَبَسَ منه، وينسج على منواله في الكلام أو الكتابة في مراحل تالية.

3– التقويم والمتابعة: ويتم وفق مرحلتين:

– **المرحلة الأولى**: ينجز فيها التلاميذ تعبيرا وفقا لمعايير محددة، كسلامة الأسلوب وسلامة اللغة نحوها وصرفها، وسلامة المعاني وتكاملها، ومنطقية العرض، وجمال المعنى والمبنى.

– **المرحلة الثانية**: معالجة الأخطاء اللغوية الشائعة في كتابات التلاميذ، من حيث المبنى والمعنى، ومنه يجب التعرض لقضايا النحو ذات الأهمية بالنسبة للتلاميذ في نطاق لغوي متكامل (الأصوات، ودلالة الألفاظ والتراكيب، أو الأساليب النحوية كالفعل والفاعل والمبتدأ والخبر...وهلم جرا)[24].

وهكذا تتحول الفكرة إلى منهج عملي واضح مرسوم المعالم منطلقه خطة واضحة وآليات تطبيق وتنفيذ محددة، وأدوات تقويم فاعلة تكشف عن مدى تحقق النتائج، كما تصحح ما يكون قد وقع من خلل أو نقص وتتدارك كلّ فوات.

خاتمة:

في نهاية البحث يمكن الوقوف على النتائج الآتية:

1- إنّ البحث العلمي في مجال تعليم اللغات وتعلمها هو في حاجة مسيسة إلى تجديد دائم وبحث مستمر عن أنجع الطرائق وأيسرها للوصول لتحقيق الغايات المنشودة.

2- إن الطرائق الحالية لتعليم اللغات في حاجة إلى تقويم دائم ومستمر من أجل تحسين كفاءتها كما جاء عن العالم "كوردير" (Corder).

3- إنّ جلّ لغات العالم تعاني من صعوبة ما في تعليم القواعد اللغوية فيها، بالنظر لما يعتري تعليم القواعد نفسه من تجريدات وتعميمات تتطلب مستوى من التخيل والتفكير عند المتعلم قد لا يكون حاضرا.

4- من النتائج المتوصل إليها في هذا البحث، ومن أهم القضايا التي يجب أن يدركها متعلم اللغة ومعلمها هي أنّ تعليم القواعد ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لصون اللسان من الوقوع في الزلل.

5- إنّ غاية تعليم القواعد أن يكتسب المتعلم كفاية لغوية سليمة في التحدث والكتابة.

6- إنّ أهمية الاستماع والحفظ في تكوين العادات اللغوية السليمة لا يمكن أن تنكر بحال.

7- مما وقف عليه ابن خلدون في كتابه المقدمة هو أنّ سليقة العربي وفصاحته وإجادته للغة العربية لم تكن جِبِلَّةً ولا طبعا، وإنما هي ملكة وصناعة تُتَعَلَّمُ وتُكْتَسَبُ على غرار باقي الصنائع.

8- يمكن الإفادة من منهج ابن خلدون في تعليم اللغات بالاجتهاد في حفظ ما تيسر من النصوص التليدة للغة العربية لتكوين العادات اللغوية السليمة، ولبناء ملكة تضارع ملكة العربي القديم.

الهوامش والإحالات

(1)– ينظر: طه حسين الدليمي: سعاد عبد الكريم عباس الوائلي: اللغة العربية منهاجها وطرائق تدريسها دار الشروق، عمان، ط1، 2003، ص 150.

(2)– نعوم امفرام تشومسكي: لساني أمريكي من مواليد 1928، من أسرة يهودية روسية الأصل، تأثر بأبيه – أستاذ اللغة العبرية – واتجه إلى دراسة اللسانيات في جامعة بنسلفانيا، حصل على درجتي الماجستير 1951، والدكتوراه 1955.

(3)– ينظر: ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت، لبنان، ط 2، 1985، ص 50.

(4)– نعوم تشومسكي: جوانب من نظرية النحو، تر: مرتضى جواد باقر، جامعة البصرة، العراق، ط1983 ص 35،41، 66، 70.

(5)– ينظر: صفية طبني: الأبعاد التعلمية للقواعد النحوية، مجلة الخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد 06، 2010، ص26.

(6)– ينظر: دوغلاس براون: أسس تعلم اللغة وتعليمها، تر: عبده الراجحي، وعلي علي أحمد شعبان طبع دار النهضة العربية، بيروت 1414هـ – 1994م، ص 236، وينظر: صفية طبني: الأبعاد التعليمية للقواعد النحوية، ص 45.

(7)– ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ص 50.

(8)– ينظر: عبد العليم إبراهيم: الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، دار المعارف، مصر، ط 5، 1992 ص 208، وينظر: محمد صاري: واقع تدريس القواعد النحوية في مراحل التعليم العام دراسة تقويمية، مجلة التواصل، العدد 08، جامعة عنابة، الجزائر، ص 07.

(9)– ينظر: عبد العليم إبراهيم: الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، ص 208، 209. وينظر: محمد صاري: نفس المرجع السابق، ص07، 09.

(10)– ينظر: عبد العليم إبراهيم: نفس المرجع السابق، ص 209 وينظر: محمد صاري: نفس المرجع السابق، ص09.

(11)– ينظر: صفية طبني: الأبعاد التعليمية للقواعد التعليمية، ص 25، 26، وينظر: علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية، دار الشواف، القاهرة، مصر، ط1991، ص 333، 334.

(12)– حسني عبد الباري عصر: فنون اللغة العربية تعليمها وتقويم تعلمها، مركز الإسكندرية للكتاب مصر، 2000 ص 80، 88.

(13)– يفرق علماء اللسانيات الحديثة بين مصطلحي "الاكتساب" و"التعلم"، فالاكتساب تعلم طبيعي تلقائي لاشعوري، ويرتبط أساسا بمرحلة الطفولة، أما التعلم فسلوك مقصود ولا يرتبط بمرحلة محددة من العمر، للمزيد يراجع: عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار النهضة العربية بيروت، لبنان، ط4، 2004، ص36 وما بعدها.

(14)– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط2 2000، ص 554، 555.

(15)– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص 559.

(16)– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص 559

(17)– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص 559

(18)– ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، مكتبة المعارف، بيروت لبنان، ط1، 1993، ص 64.

(19)– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص 442.

(20)– فاطمة صغير، ووهيبة وهيب، آليات الانغماس اللغوي وفاعليتها في تعلم اللغة العربية – ملكة الحفظ نموذجا، أعمال الملتقى الوطني الانغماس اللغوي بين التنظير والتطبيق، المجلس الأعلى للغة العربية، دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2018، ص 52، 53.

(21)– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص 555.

(22)– عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص 561.

(23)– ينظر: فاطمة صغير، ووهيبة وهيب، آليات الانغماس اللغوي وفاعليتها في تعلم اللغة العربية، ص58.

(24)– ينظر: علي أحمد مدكور، تدريس فنون اللغة العربية، ص 349، 351.